شيخ علماء اليمن القاضي الفقيه

محمد بن إسماعيل العمراني

(سيرة وتاريخ ومواقف وآراء)

مُقدِّمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد :

كانتْ كتابةُ هذا الفصل من أصعب الفصول ؛ وذلك لأنَّكَ إذا أردتَ أنْ تكتب عن شخصيَّة متعددة الجوانب والمزايا والصِّفات ، تأخذك الحيرة ، فَبأيِّ هذه الصفات تبدأُ في الكلام ، وأيِّ هذه الجوانب تصدِّر ، ثُمَّ إنَّك لمهابتك للشخصيَّة وامتلاء صدرك بمحبَّتها تجد أنَّ القلم كلَّما تحرَّك بكَتْبِ كلمةٍ ، تجدها ناقصةَ غيرَ مُعبِّرة عمَّا في صدرك وقلبك .

وهكذا كنتُ أبدأُ في كتابة هذا الفصل ثم أضربُ على هذه الكتابة أو أُمزِّقها ، وتعدَّد ذلك منِّي حتَّى أصبح هَذا الفصلُ متأخِّراً حتَّى انتهيتُ من الكتاب ، ولم يُكتب هذا الفصل ! .

ثُمَّ فتحَ اللهُ عَلَيَّ بفكرةٍ – أعتقدُ أنَّها جيِّدةٌ إنْ شَاءَ اللهُ – وهي :

أنِّي قُلتُ لنفسي : لماذا لا أترك القاضي العمراني يُعرِّفُ بنفسه ؟! ، ولا أتدخلُ إلا لتعليق يسيرٍ أو تنبيه لطيف ، وكانت هذه هي الفكرة الَّتي حلَّت المشكلة الَّتي استمرتْ زمن إعداد الكتاب كُلِّه ولكن كيف سيعرِّف القاضي بنفسه – عزيزي القارئ – ؟ ، هل تعتقدُ أنِّي سأذهب إلى القاضي وأطلب منه أنْ يكتب سيرة ذاتيَّةً مُختصرةً لنفسه ؟ لا ، ليس كذلك ، ولو طلبت – فرضًا – من القاضي أنْ يكتبَ عن نفسه ، فلن يُوافق ، ولن يستطيع ؛ لتواضعه ولأنَّه من المبغضين للكلام عن النفس ، ومن المُقلِّين في استخدام كلمة « أنا » ، فما العمل ؟! .

وجدتُ الحلَّ وهو : كان لديَّ أسئلة كنتُ أوجهها للقاضي العمرانيِّ قديماً عن نفسه وعن دراسته وطلبه للعلم ، وما شابه ذلك ، وكان لديَّ لقاءاتٌ وأسئلةٌ وجهتُها إليه بعض المجلاَّت [١] وأجاب عنها وكذلك تراجم له ولآبائه وأجداده في كتب التَّراجم والرِّجال والتَّاريخ [٢] ، فتكوَّن من مجموع هذا كَمٌّ جيِّدٌ من المعلومات المطلوبة في هذا الفصل ، بالإضافة لمعرفتي الشَّخصيَّة به وبجوانب حياته ، فرأيتُ أنِّي لو دمجْتُ هذا كلَّه وألَّفت بين عناصره على هيئة سؤالٍ وجوابٍ وتعليقٍ ، أو مُداخلةٍ لتكوَّنَتْ صورةٌ واضحةٌ عن حياة القاضي وكفاحه وعلمه ومواقفه وآرائه ، وهو ما يشتاق النَّاسُ إلى معرفته عن عظمائهم وكبارهم وعلمائهم .

على أن يكونَ السؤال مما وُجِّه إليه حقيقةً منِّي أو من هذه المجلات المذكورة ، وربَّما صنعتُ – أنا – السُّؤال ولم يكن موجوداً في الأصل ، ولكن إجابته موجودة في كلامه فربَّما وجدتُ في كلامه شيئًا يحتاج إلى أنْ يُبرز في هيئة سؤالٍ ، فأصنع – أنا – سؤالاً مناسبًا لكلام قاله هو ، وعلامة هذا السؤال المصنوع أنْ أضعه بين قوسين ، وأمَّا الإجابات عن الأسئلة الَّتي وُجِّهت إليه أو صنعتها أنا ، فهي منقولةٌ من كلامه بنصِّها ولفظها لا أتصرفُ فيها بشيءٍ تأديةً للأمانة ، وإنْ كانَ تدخل منِّي بيَّنْتُ ذلك ووضَّحته .

وأمَّا التَّعليقُ أو المداخلة فمنِّي وعلامتها أنْ أبدأها بكلمة « قلتُ » ، وأختمها بكلمة « انتهى » ، أو أنْ يكونَ تعليقي في الحاشية .

فهاك هذه السِّيرة العطرة في هيئة سؤالٍ وجوابٍ ومُداخلة :

محمد عبد الرحمن بخيت

حفظه الله

---

(١) مثل : مجلة « العالم الإسلامي » ، و« الإرشاد » ، و« الشَّقائق » ، و« البيان » ، و« المدد » وغيرها .

(٢) مثل : « البدر الطَّالع » للشوكاني ، و« نزهة النَّظر » ، و« نيل الوطر » لزبارة ، و« تحفة الإخوان » ، و« حدائق الزَّهر » ، و« التقصار » وغيرها .

[س١] ما الاسم الكريم كاملاً ؟ .

[جـ] أنا محمَّد بن إسماعيل بن محمد بن محمد بن علي بن حُسين بن صالح بن شايع [١] العَمْراني .

[س٢] متى ولدتُم ؟ وأين ولدتُم ؟ .

[جـ] وُلِدْتُ في ربيع الأول سنة (١٣٤٠هـ) ، الموافق (١٩٢٢م) في مدينة « صنعاء » كما وُلِدَ فيها أبي وجدّي وجد أبي ، ولنا في صنعاء حوالي مائتين وخمسين عاماً .

[س٣] هل تنتسبون إلى أهل البيت ﷺ ؟ .

[جـ] لستُ من آل البيت ، بل من أسرة لعبتْ دوراً في عالم العلم قبل مئة عام .

[س٤] في أيِّ سنٍّ بدأتم طلب العلم الشَّرعيّ ؟ .

[جـ] وعمري أربع عشر عاماً .

[س٥] بأي العلوم بدأتم الطَّلب ؟ .

[جـ] بالنَّحو والفقه .

---

(١) ويُصحفها بعضهم إلى « شافع » بالفاء ، وهو خطأٌ محضٌ ، وأخفُّ منه من جعلها « شائع » بالهمزة ، وهو خطأٌ أيضاً ، والصَّواب بالياء كما كتبناه بعد مراجعة القاضي العمراني نفسه .

[س٦] ما الأسبابُ الَّتي أدَّت بكم إلى اختيار طلب العلم الشَّرعيّ ؟ .

[جـ] لأنني سمعتُ وأنا صغير السِّنّ أنَّ جدي كان هو ووالده وأخوه من أكبر علماء اليمن في السُّنَّة وغيرها .

[س٧] هل كان والدكم الفاضل أو أخوكم - مثلاً - من العلماء ، فأخذ بيديكم إلى طريق العلم الشَّرعيّ ؟ .

[جـ] لم يكن والدي من العُلماء الكبار ، بل من الورعين المتدينين ، ولكن والده وعمّه وجده كانوا من أكبر العُلماء . وقد سألتُ الله وأنا صغير أنْ أكون من خدمة العلم ، واستجاب اللهُ دُعائي والحمد لله .

[س٨] كيف نشأتم ؟ ، وهل يُمكن أنْ تُعطونا فكرة عن تلكم الأُسرة العلميَّة [١] التي نشأتُم فيها ، أو كنتم امتدادًا لها ؟ .

[جـ] نشأتُ يتيمًا ، إذْ تُوفِّي والدي سنة (١٣٤٤هـ) ، وعمري لم يتجاوز الرَّابعة ، وكان رحمه الله فاضلاً مُتديِّنًا ورعًا ، ولم يكنْ من العلماء الكبار .

ولكن والده القاضي محمد بن محمد كان من كبار علماء اليمن ، ولاسيَّما في الحديث ، وقد ترجمه مؤلف « نزهة النَّظر في تراجم رجال القرن الرابع عشر من هجرة سيد البشر » وكانت وفاته سنة (١٣٠٢هـ) .

كما كان أخوه عبد الرحمن بن محمد من كبار علماء اليمن ، وقد توفي وهو

---

(١) انظر الملحق « مجموع تراجم بيت العمراني » الذي جمعته في تراجم هذا البيت الطيب من كتب التراجم والرجال والتَّاريخ .

صغير السن سنة (١٢٧٢هـ) ، وقد أخذ الأخوانِ المذكوران عن شيخ الإسلام الشوكانيِّ المُتوفَّى سنة (١٢٥٠هـ) في آخر عمره .

أمَّا أبوهما فقد كان أعلمَ منهما ، وهو القاضي محمد بن عليّ العَمْراني الذي أخذ عن الشوكانيِّ في أكثر الفنون ، وصحبه أكثر من ثلاثين عامًا ، وله مؤلَّفات ، وقد ترجمه جماعة من المُؤرِّخين كشيخه الشَّوكانيِّ في « البدر الطَّالع » ، وتلميذه عاكش الضَّمديُّ في « تاريخه » [1] ، وزميله الشَّجنيُّ في « التقصار » ، والزِّركليّ في « الأعلام » ، وقد قُتلَ شهيداً غريباً سعيداً في داره بزبيد سنة (١٢٦٤هـ) .

وأمَّا والده (عليُّ بن حُسين) ، فقد كان فقيهًا فاضلاً ، ولم يكن من العلماء الكبار مثل ولده وحفيديه .

وأمَّا بقيَّة النَّسب ، فلم يكونوا من العلماء ، ولا قرأوا [2] ، ولا عاشوا في صنعاء، بل عاشوا في « عَمْرَان » شمال صنعاء بخمسين كيلو متر .

وأوَّل من دَخَلَ من الأسرة صنعاء ، وقرأ ودرس هو (عليّ بن حُسين) الَّذي دخل – وهو صغير السن – مدينة صنعاء ، واستقرَّ بها هو ومَنْ جاء بعده من النِّصف الثَّاني من القرن الثاني عشر إلى يومنا هذا ، فلنا في صنعاء حوالي قرنين ونصف قرن، عاش فيها خمسة أجيال .

(١) المسمى « حدائق الزهر » ، وقد طُبع مؤخَّرًا .

(٢) يُريد أنهم لم يدرسوا العلم ، ومن اللطيف أنَّ القراءة في اليمن تُستخدم بمعنى الدراسة ، والدراسة تُستخدم بمعنى القراءة . فيُقال : فلان يَدْرس القرآن ، أي يقرأ القرآن ، ويُقال : فلان يقرأ على فلان أو عند فلان ، أي يدرس عنده .

[س٩] هل رحل هؤلاء العلماء من آبائكم في طلب العلم ؟ وهل رحلتم أنتم كذلك ؟ .

[جـ] قد رحل جدي (محمد بن محمد العمراني) لطلب العلم إلى زبيد وصبيا وأبو عريش ومكّة ، والمدينة .

وأمّا والدي – رحمه الله – فلم يَرْحَل إلى أيّ بلدٍ ، وهكذا أنا لم أَرْحَل لطلب العلم إلى أيّ مدينة لا في اليمن، ولا خارج اليمن، وإنّما درستُ عند علماء صنعاء، وأجازني بعضهم .

[س١٠] بالمناسبة لماذا -في نظرك- لم ينتقل العلماء اليمنيون بين الأقطار الإسلاميّة مثل غيرهم من العلماء؟ .

[جـ] بعضهم خرج إلى الأقطار المجاورة ، ولكن هذا نادر ؛ لأن غيرهم كان ينظر إليهم بنظرات الزّندقة والإلحاد لا لشيءٍ إلاّ أنّهم زيود ومجتهدون ، فالعلاّمة السيّد محمد بن إبراهيم الوزير حينما خرج إلى مكّة في القرن الثامن ودرس لدى العلاّمة نفيس الدين العلوي الشافعيّ ، وهو من علماء الحديث ، وعندما وجده علاّمة مجتهداً حادّ الذكاء قال له : يا مولانا ، مادام وأنت في غاية من الذكاء والعلم ما بالُك لم تنتقل إلى المذهب الشّافعيّ – يعتقدون أنّ المذهب الزّيديّ ناقص أو شيءٌ من هذا – فأجابه ابن الوزيرُ : لو كنتُ مُقلّداً لقلّدتُ جَدّي الإمام الهادي أو الإمام القاسم ، ولكنني مجتهد لا أُقلّد أحداً لا شافعيّ ولا غيره .

وكذلك المقبلي عندما كان يُتّهم في اليمن بأنّه ناصبي ومعاد لآل البيت خرج إلى مكّة فوجد الصّوفيّة والأشعريّة جامدين ، فقالوا له زنديق ، فقال : كان أهل اليمن أحسن أدباً معي فسمّوني ناصبي ولم يُخرجوني من الدين ، فهذا هو السّبب .

[س١١] ما الكتبُ التي قرأتموها على مشايخكم في شتَّى العلوم ، كالفقه والأصول ، واللغة وغيرها من العلوم والفنون بالتَّفصيل ؟ .

[جـ] قرأتُ أكثر متن « الأزهار » في الفقه الهادوي على السيِّد عبد الكريم الأمير ، وأمَّا شرحه المُسمَّى « المُنتزع المختار من الغيث المدرار » لابن مفتاح ، فقرأتُ بعضاً منه على السيد أحمد زبارة ، ومثله على القاضي عبد الوهَّاب الشَّماحيّ ، كما قرأتُ بعضًا منه لدن السيِّد عبد الخالق الأمير ، وبعضًا منه لدن السيد أحمد الكُحلاني، وبعضاً منه لدن القاضي حسن المغربي .

كما قرأتُ عند القاضي المغربي أيضًا من أول « بيان ابن مُظفَّر » إلى آخر كتابُ الشفعة ، كما قرأتُ عليه أيضًا « شرح الناظري على مختصر العُصيفري » في الفرائض .

كما قرأتُ أيضاً في الفرائض على القاضي عليّ الأنسي .

وأمَّا في الأصول :

فقرأتُ متن « الكافل » لابن بَهْرَان عند السيِّد عبد الكريم الأمير ، كما قرأتُ عنده شرح الكتاب المذكور لابن لُقْمان .

وهكذا قرأتُ عند القاضي عبد الله حُميد في «شرح الكافل» أيضاً لابن لُقمان.

وقرأتُ « شرح الكافل » للطبري عند الشَّيخ محمد البُهلولي .

أمَّا كتابُ « شرح الغاية » الذي يُعَدُّ من أكبر المُؤلَّفات في الأصول ، فقد قرأتُ بعضَهُ عند السَّيِّد محمد السَّراجي ، وبعضه عند السيِّد أحمد الكُحلاني ، وبعضَه عند القاضي يحيى الإرياني ، وهو من تأليف العلاَّمة الحُسين بن القاسم .

أمَّا في النَّحو :

فقرأتُ « مُلحة الإعراب » ، و« ألفيَّة بن مالك » عند السيِّد عبد الكريم الأمير ،

كما قرأتُ لدنه « شرح الفاكهي على المُلحة » ، وشرح « قواعد الطلاب » لابن هشام المُسمَّى « مُوصل الطُّلاب شرح قواعد الإعراب » للعلاَّمة الأزهريّ ، وهكذا قرأتُ عند المذكور أكثرَ « شرح بن عُقيل على الألفيَّة » وأكثر « مُغني اللبيب » لابن هشام الأنصاري .

وقرأتُ بعض « شرح القطر » لابن هشام عند القاضي أحمد الزبيري ، وعند السَّيِّد عبد الخالق الأمير ، وعند القاضي عليّ المغربي ، كما قرأتُ بعض « شرح ابن عُقيل » وبعض « الجوهر المكنون » عند القاضي عبد الله بن حميد .

كما قرأتُ « شرح الجوهر المكنون » في المعاني والبيان ، عند السيد عبد الكريم الأمير ، وأمَّا « شرح التَّلخيص » في المعاني والبيان لسعد الدين التفتازاني ، فقرأته عند الشيخ محمد البهلولي .

وأما مصطلح الحديث :

فقرأتُ فيه « نخبة الفكر » وشرحها ، وكلاهما لابن حجر العسقلاني ، وطالعتُ « تنقيح الأنظار » للسيِّد محمد الوزير وشرحه « توضيح الأفكار » للسيِّد محمد الأمير الصنعاني .

وأمَّا الحديث :

فقرأتُ فيه « شرح عمدة الأحكام » لابن دقيق العيد ، عند الشَّيخ محمَّد البهلولي ، وقرأتُ بعضه عند السَّيِّد محمد السراجي ، وقرأتُ نصف « سبل السَّلام » عند السيِّد أحمد زبارة .

كما قرأتُ ذلك عند عبد الله الجرافي ، الَّذي قرأتُ عنده أيضًا بعضًا من « نيل الأوطار » للشوكاني ، و« السنن » للإمام النسائي ، و« الاعتبار في النَّاسخ والمنسوخ من الآثار» للحازمي ، و« الشَّمائل النَّبويَّة » للترمذي ، و« الموطَّأ » للإمام مالك .

وقرأتُ « صحيح مسلم » عند السَّيِّد عبد الخالق الأمير ، وبعضًا من « سنن أبي

داود » عند القاضي يحيى الإرياني ، والبعض عند السَّيِّد أحمد الكحلاني .

وهكذا قرأتُ عند السيد عبد الخالق الأمير بعضاً من « أمالي أحمد بن عيسى » ، وعند القاضي يحيى الإرياني بعضاً من « الرَّوض النَّضير شرح مجموع زيد بن علي » للسياغي – رحمه الله – ، وقرأتُ لديه أيضاً بعضاً من « سنن أبي داود » ، ومن « زاد المعاد» لابن القيِّم – رحمه الله – .

(وأمَّا التَّفسير) : [١]

وقرأتُ في « الكشَّاف » للزمخشري عند القاضي عبد الله السَّرحي ، وعند القاضي يحيى الإرياني ، وعند السَّيِّد أحمد الكُحْلاني ، وعند الشَّيخ علي الدَّبب ، وعند الشَّيخ محمد البهلولي .

كما قرأتُ بعض « فتح القدير » للشوكاني عند القاضي يحيى العنسي .

[س١٢] عُرفتم بأنَّكم من أصحاب الأسانيد العالية ، فما أعلى أسانيدكم ؟ .

[**جـ**] أقرب سند لي إلى شيخ الإسلام محمد بن عليّ الشَّوكانيّ ، ما أرويه عن القاضي عبد الله حُميد عن شيخه العلاَّمة عليّ السُّدمي عن شيخه جدِّي القاضي محمد بن محمد العمراني ، عن شيخه شيخ الإسلام الشَّوكانيّ ، جميع ما حواه مُؤلَّف الشَّوكاني ، وهو « إتحاف الأكابر في مسندات الدَّفاتر » .

وأيضاً أقربُ الأسانيد إلى الإمام الشوكاني ما أرويه عن القاضي عبد الله الجرافي عن المولى العَلاَّمة حُسين بن علي العمري عن العلاَّمة إسماعيل بن مُحسن بن عبد الكريم بن إسحاق، عن شيخ الإسلام الشوكاني بسنده المعروف في «اتحاف الأكابر» .

ولي سَنَدٌ قريبٌ آخر ، وهو ما أرويه عن العلاَّمة قاسم بن إبراهيم بن أحمد عن

---

(١) هذا العنوان من عندي .

القاضي العلاَّمة إسحاق المُجاهد عن جدِّي محمد بن محمد العمراني ، عن شيخ الإسلام الشوكاني بسنده المعروف .

وأيضًا من جُمْلَة أسانيدي القريبة إلى السَّيِّد العَلاَّمة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني صاحب المُؤلَّفات المشهورة ما يرويه جدِّي العمراني عن السيد العلاَّمة عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني عن والده الإمام العلاَّمة البدر محمد بن إسماعيل الأمسر بسنده المعروف في « اتحاف الأكابر » وفي غيره من الأسانيد .

كما أروي عن شيخي العلاَّمة عبد الواسع بن يحيى الواسعي جميع ما تضمنه كتابه « الدر الفريد » من المقروءات والمسموعات والإجازات عن علماء اليمن وحضر موت والهند ومصر الشَّام وغيرهم من علماء الأقطار ، كل ذلك قد أجازني به مشايخي ، ومن جملة ما أرويه عن شيوخي المذكورين سابقًا الحديث المسلسل المروي عن معاذ بن جبل ﷺ ، وكذلك الأحاديث المسلسلة بالصلاة على النَّبي صلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وسلَّم .

[س١٣] هل لكم مُؤلَّفات ؟ .

[**جـ**] ليس لي مؤلَّفات إلاَّ بعض الرسائل والمجاميع ، لكن لي كتاب تحت عنوان « نظام القضاء في الإسلام » ، وهو محاضرات كنتُ قد ألقيتها في المعهد العالي للقضاء عن القضاء في العصر الجاهلي وعصر النبوَّة ، والخلفاء الرَّاشدين ، وتاريخ القضاء أيَّام الخلفاء الأمويين والعبَّاسيين ثم المماليك ، ثم القضاء في اليمن ، فقام المعهد العالي للقضاء بجمعها في هذا الكتاب [١] .

---

(١) معظم ما كتبه القاضي – حفظه الله – كان في صورة مقالات ، غالبها نُشر في « مجلة الإرشاد » أو «مجلة النور » ، وبعضها كانت محاضرات ألقيت في « المعهد العالي للقضاء » وأخرى مسودات غير مرتبة في أوراق القاضي ، ولعل هذه المحاولة إن شاء الله – وهي طباعة هذه الأبحاث والفتاوى – إن وصلت إلى غايتها ، ستكون جامعة لكل ما خطَّه القاضي العمراني – حفظه الله – .

[س١٤] متى ابتدأتم تدريسكم لطلبة العلم ؟ ، وفي أيّ المعاهد أو المساجد كان تدريسكم ؟ .

[**جـ**] قد درستُ الطَّلبة من عند أن كان سنّي (٢٢) عامًا إلى يومنا هذا في مسجد الفليحي وفي مسجد الزبيري وفي المدرسة العلميَّة أيَّام الملكيَّة ، وفي جامعة صنعاء وفي المعهد العالي للقضاء وفي جامعة الإيمان في أيَّام الجمهوريَّة ، وذلك في كثير من كتب النَّحو والبلاغة والأصول والفقه والحديث والتَّفسير ومصطلح الحديث وغيرها من العلوم العربيَّة والإسلاميَّة .

[س١٥] ما الكتب التي درستموها في هذه المساجد وتلك المعاهد ؟ .

[**جـ**] ومن الكتب الَّتي درَّستها « شرح القطر » لابن هشام ، و« شرح القواعد» للأزهري ، و« شرح الألفيَّة » لابن عقيل ، و« المغني » لابن هشام ، و«شرح الجوهر المكنون » و« البلاغة الواضحة » و« النَّحو الواضح » و«علم أصول الفقه » لعبد الوهَّاب خلاَّف ، و« شرح الكافل » لابن لُقمان ، و« شرح الطبري على الكافل » ، و« نُخْبة الفكر وشرحها » لابن حجر ، و« توضيح الأفكار » للأمير ، و« أمالي أحمد بن عيسى » و« مجموع زيد بن عليّ » و« البخاري » و«مسلم » و«أبو داود » و« الشمائل النَّبويَّة » للترمذيّ ، و«تحفة الذَّاكرين » و« الدراري المضيئة » و«نيل الأوطار » ، و« سبل السَّلام » ، و« إحكام الأحكام شرح عُمدة الأحكام » و«فقه السُّنَّة » و« رياض الصالحين » و« الرَّوض النَّضير » و« فتح الغفَّار » وغيرها من كتب الفقه والأصول والمصطلح والحديث والتَّفسير والنَّحو والبلاغة ، بعضها مرة ، وبعضها مرَّتين ، وبعضها ثلاث مرَّات ، وبعضها أربع مرَّات .

[س١٦] لقد قُمْتم بالتَّدريس في حلقات المساجد سواء في عهد ما قبل الثَّورة أو بعدها وقد تخرَّج على أيديكم الكثيرُ من العُلماء وفي نفس الوقت كنتم تعملون في سلك التَّدريس بجامعة صنعاء فهل ترون أنَّ حلقة المسجد لا زالتْ مُجدية مع وجود المدارس الحديثة والجامعات؟ . (١)

[جـ] في البداية أشكرك على حُسن الظَّنِّ هذا ، ولكنني أعلم بنفسي منك ودوري في هذا المجال كان بسيطًا ، أمَّا بالنسبة لسؤالك ، فالمدارس والجامعات الحديثة لابُدَّ منها فحياة الإنسان اليوم أصبحت موقوفة على النَّتيجة أو « الشهادة » الَّتي يتلقَّاها من الجامعات والمدارس المتخصصة ، إلاَّ أنَّ المسجد لم يفقد دوره إلى الآن ، ولابُدَّ من الدراسة فيه ؛ لأنَّ المسجد يخلق في الإنسان الاعتزاز بالمبادئ والقيم الإسلاميَّة ، فعلاقة الطَّالب مع شيخه في المسجد علاقة رُوحيَّة ، والطَّالب في المسجد يشعر أنَّ له أجرًا عظيمًا ، كنَّا ونحن طلبة إذا مرَّ أحدُهم بيننا نقول له : لا تتخطَّى الملائكة فقد كُنَّا نحس أنَّ الملائكة تظلنا بأجنحتها ، وكنت أقول إنَّ دراستي لدى الشَّيخ في المسجد أفضل من صلاة النَّافلة ؛ لأنَّ الصَّلاة تخصني لوحدي ، أمَّا العلم فإنَّه يتعدَّاني إلى غيري ، ثُمَّ إنَّ الدِّراسة في المسجد نوعٌ من التَّربية الناجحة ، فالطَّالب عندما يحترم شيخه إنَّما يحترم العلم الذي يحمله ، كُنَّا إذا سافر شيخُنا للحجِّ نبكي ؛ لأننا نشعر بفقدنا التَّعلم ، وكُنَّا إذا تعارفنا نحن الطلاب فيما بيننا نذكر الأستاذ الذي درَّسنا لتقديرنا له وافتخارنا به .

ثُمَّ إنَّ الدراسة في المسجد خاضعة لاندفاع ورغبة الطَّالب نفسه وليس فيها نتيجة ولا نجاح ولا رسوب ، وإنَّما هي الدَّرجة العلميَّة الَّتي يحوزها الطَّالب من شيخه ، كنَّا نستيقظ قبل صلاة الفجر ، وذلك للذهاب إلى مسجد يبعد عنَّا مسافة لا بأسَ بها ؛

---

(١) ومن اللطيف أنَّ القاضي العمراني – حفظه الله – عندما يُسأل عن المُفاضلة بين دراسة الجامع والجامعة ، كان يقول : هذا جامع ، وتلك جامعة ، وليس الذكر كالأنثى .

كي نحضر درس الفقه عند القاضي عبد الله الجرافي بعد الصَّلاة ، ثُمَّ نذهب بعد طلوع الشَّمس إلى مسجد آخر ؛ لنحضر درسًا آخر ، وبعد صلاة العصر نكون عند شيخ آخر ، وهكذا بين صلاتي المغرب والعشاء ، حتَّى إنَّ الطَّالب منَّا كان لا يتناول طعامه إلاَّ في أوقات الفراغ بين الدَّرس والدَّرس .

كل هذا قبل أن يكون هناك وسائل مواصلات ، ولم يكن هناك انتشار للكتاب كما هو الآن ، وحتَّى الإضاءة لم تكن كافية ، ورغم وجود تلك الظروف الصَّعبة كنَّا نجد من الطَّلبة من ينقطع للعلم السَّنتين والثَّلاث سنوات في قُرى نائية يُهاجر إليها الطَّلبة وتُسمَّى بـ« الهجَر » ، ولا ننسى أنَّ العلماء في الأقطار الإسلاميَّة كانوا يُهاجرن من قُطْرٍ إلى آخر طلبًا للعلم ، وقد تخرَّج من المساجد كُلُّ علمائنا ومُفكِّرينا في العصور السَّالفة ، ولكن القاعدة تقتضي أنَّه ليس كلُّ من تخرَّج من الأزهر الشَّريف كالدكتور يوسف القرضاوي ، والشيخ محمود شلتوت ، كما إنَّه ليس كل خريجي الجامعة أمثال الدكتور زكي مبارك والدكتور طه حسين ، إذًا فلابُدَّ من الدراسة في المسجد ؛ ليتخرَّج العلماء الرُّوحانيون والذين تفتقدهم المدارس والجامعات ، فكل منهما يُكمِّلُ الآخر .

[س١٧] سماحة الشَّيخ مَنْ هم العلماء الَّذين كان لهم أكبر الأثر في مسيرتكم العلميَّة ؟ .

[**جـ**] أمَّا الَّذين كان لهم أثرٌ في حياتي العلميَّة فهم علماء اليمن المتأخِّرون أمثال الخمسة الأبطال الَّذين أعلنوا الاجتهاد المُطلق في العصور المتأخِّرة التي ساد فيها الجمودُ وأعلنوا عدمَ التَّقليد في سائرِ الأقطار الإسلاميَّة « الوزير والجلال والمَقْبلي والأمير والشَّوكاني» ، ولاسيَّما الأخير منهم فمؤلَّفاته الحرَّة وقلمه السَّيَّال وشجاعته الفكريَّة واجتهاده المطلق ، هي الَّتي كان لها الأثرُ العظيمُ في مجرى حياتي العلميَّة ، كما أنَّ لمؤلَّفات محمد رشيد رضا الفضل العظيم عليَّ ولاسيَّما «مجلَّة المنار » .

[س١٨] يودُّ القارئُ أَنْ يتعرَّف على المدرسة الَّتي ينتمي إليها القاضي العلاَّمة محمد بن إسماعيل العمراني ؟ .

[جـ] الواقع أنَّني لا أنتمي إلى مدرسة بذاتها من المدارس الإسلاميَّة المعروفة ، فأنا مسلم قبل كل شيءٍ ولا يهمني المسمَّيات ، أما إذا سُئلت عن المُؤثِّرات الَّتي تأثَّرتُ بها ، وكان لها دور كبير في حياتي العلميَّة ، فأقول : إنَّ أوَّل المؤثرات في حياتي هم علماء اليمن المتأخِّرون أمثال شيخ الإسلام محمد بن عليّ الشَّوكاني ، والعلاَّمة المجتهد السَّيِّد محمد بن إبراهيم الوزير ، وكذلك ابن الأمير ، والمقبلي ، والجلال ، وغيرهم .

ولا شكَّ أيضًا أنَّ لأساتذتي الأجلاَّء والَّذين تلقيتُ علومي على أيديهم في المسجد دوراً في إثراء ثقافتي وعلى رأسهم العلاَّمة محمد بن صالح شمس الدين البهلولي ، ثم إنَّ الشَّيخ محمد رشيد رضا الذي عاصرته في آخر أيَّامه كان له دور كبير أيضًا ، وأنا مُعْجَب به ، وبفكره أشد الإعجاب ، وهناك مؤثِّر آخر أعتبره مُهمًا في إثراء ثقافتي وهي مصالعتي المُستمرة للكتب ، ولعلي لا أكشف لك سراً إذا قلت لك إنني شغوف بالقراءة إلى حد بعيد .

[س ١٩] رغم إقفال باب الاجتهاد عند الكثير من المذاهب الإسلاميَّة إلاَّ أنَّه ظهر في اليمن مُجتهدون يُمكننا تسميتهم بالمجددين من أمثال: شيخ الإسلام محمَّد بن علي الشَّوكاني وابن الأمير والوزير والمقبلي وغيرهم ، فما الأسباب الَّتي ساعدت على بروز هؤلاء العلماء؟.

[جـ] **السبب الأول :** يعودُ بنظري إلى حركيَّة المذهب الزَّيدي فهو مذهب مُتحرك ، وقد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه من أوَّل تكوينه على يد الإمام زيد بن علي زين العابدين ﷺ ، وقد حَرَّمَ مؤلفُ « الأزهار » – وهو أشهر الكتب الفقهيَّة

عند الزَّيديَّة – التقليدَ ، يقول المُؤلِّف : « يجب على كل مَنْ حازَ علومَ الاجتهاد أنْ يجتهدَ ، ولا يجوز التَّقليد إلاَّ بعذر » ، كما أنَّ أئمَّة الزَّيديَّة قد مارسوا الاجتهاد بالفعل إذ الفضل يعودُ إلى مؤسس المذهب إلى الإمام الهادي يحيى بن الحسين ، والإمام يحيى بن حمزة ، وغيرهم من المتقدِّمين .

ولذلك فلا غرابة أن تجد في كتبهم أمثال « الأزهار » و« الانتصار » أن ينتقدَ أحدُهم الآخر ، وهذا لا تجده عند أتباع المذاهب الإسلاميَّة الأخرى ، فالقواعد لدى المذهب الزيدي واحدة إلاَّ أنَّ الاجتهاد يتعدد ويختلف ، وهذا المدى الَّذي اعتمده الزَّيديُّون في اليمن قد شجَّع الكثير من علمائهم على الاجتهاد حتَّى خارج المذهب نفسه ، وقد تخرَّج من هذا المذهب علماء أفذاذ ، فالعلاَّمة المجتهد السَّيِّد محمد بن إبراهيم الوزير مؤلف « العواصم والقواصم » وهو خلاف « العواصم من القواصم » لابن عربي ، هذا الكتاب الَّذي يقول عنه الشَّوكانيُّ : « لو خرجَ خارج اليمن، وتناوله علماء الأمصار من الشام ومصر وبلاد المغرب لوجدوا فيه علمًا لا يجدونه في مؤلف آخر » يروى أنَّ سبب تأليفه أنَّ شيخ الإمام ابن الوزير قد أرسل إليه رسالة قصيرة يعاتبه فيها لعدم تقليده للمذهب الهادوي ، فكان أن ردَّ على شيخه في كتاب بأربع مجلدَّات ردّاً عقلياً ، ودافع عن آرائه وآراء علماء السنَّة بالحجة .

وقد وصل بهذا العالم الذكاء إلى أنَّه كان يرد على المسألة الواحدة من أربعين أو ثلاثين وجهاً، وقد انتقده بعضهم لإيراده أحاديث مرويَّة عن صحابة لا يُؤخذ بروايتهم عند الزَّيديَّة من أمثال معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة ﷺ ؛ ولأنَّ الوزير قد بلَغَ درجة الاجتهاد المطلق فقد استطاع أن يحصر هذه الأحاديث، وجاء بها بطرق أخرى وعن طريق صحابة آخرين، وقد أوردها جميعًا في كتابه، وقد تبعه علاَّمة آخر كان مجتهداً أيضاً وهو العلاَّمة السَّيِّد حسن بن أحمد الجلال الَّذي يقول في أحلى قصائده :

لولا محبَّة قدوتي بمحمَّد زاحمتُ رسطاليس في أبوابه

وبعده جاء العلاَّمة صالح المقبلي ، وقال في كتابه : « العلم الشَّامخ في إيثار الحقّ على تقليد الآباء والمشايخ » : « إنَّ النَّاس قد اختلفوا إلى معتزلي وأشعري ، وإلى سنَّة وشيعة وإلى حنبلي وشافعي ، أمَّا أنا فإنِّي ذاهبٌ إلى ربِّي سيهدين » ، وشقَّ له طريقًا واجتهد اجتهاداً مطلقًا ، ثمَّ جاءَ العلاَّمة محمد بن إسماعيل الأمير وأعلن في كتابه « إرشاد النقَّاد إلى تيسير الاجتهاد » بأنَّ على علماء اليوم واجب الاجتهاد ؛ لأنَّ الوسائل متوفرة لديهم أكثر من توفّرها لدى علماء السَّلف ، وقال : يحرم على الإنسان أن يبقى مُقلِّداً ، وقد تمكَّن من علوم الاجتهاد ، وبعد ذلك جاء شيخ الإسلام محمد بن عليّ الشوكانيّ العالم المعروف ، وألَّف كتابه « المُفيد في أدلة الاجتهاد والتَّقليد » ، وأعلن هو الآخر ضرورة الاجتهاد ..

وأمَّا السَّبب الآخر والذى ساعد علي بروز هؤلاء العلماء :

فهو أنَّ اليمن عاشت فترة من الاستقلال السِّياسي عن كل من الدَّولتين العبَّاسيَّة والعثمانيَّة ، وفترة كبيرة من الدَّولة الأمويَّة ، فهذا الاستقلال قد مكَّن اليمن من الاجتهاد خصوصًا بالأمور الَّتي تتعلَّق بالحكم وسياسات الدَّولة حيث من المعروف أنَّ الخلافة العبَّاسيَّة والأمويَّة ، وكذلك العثمانيَّة قد حجرت الاجتهاد في ذلك ، ونُلاحظ أنَّ المؤلفات في هذا الجانب محصورة وبسيطة ويُمكن حصرها في كتب « الأحكام السلطانيَّة » ، و«مقدمة ابن خلدون » ، وكذلك « أدب الدُّنيا والدِّين » .

وقد تميَّز النِّصف الأوَّل من القرن الحادي عشر الهجري بالجمود الفكري بينما وجدت في هذه الفترة حريَّة الفكر داخل اليمن ، وقد وجد في اليمن علماء من جميع المذاهب الإسلاميَّة ، ويبدو أنَّ العلماء الَّذين أغلقوا باب الاجتهاد قد توهَّموا أنَّ عقول المتأخِّرين ليست كعقول المتقدِّمين ، وهذا وهمٌ وخطأ فلا يخلو عصر من العصور من وجود علماء أفذاذ ، فمثلاً الإمام ابن حجر العسقلاني مؤلف « فتح الباري » وغيره من كتب الحديث ، لازال شافعيّاً حتَّى تُوفيَ في حين أنَّه أكثر علمًا من الشَّافعيّ نفسه ، وكذلك الطَّحاوي لايزال حنفيًا ولم يستطع الخروج عن مذهبه

رغم علمه الغزير ، فلماذا هذا التَّقوقع حتَّى لو افترضنا أنَّ علماء ومؤسسي المذاهب أكثر علمًا منهم فما المانع من اجتهادهم ؟ ، إنَّ هذا لاشكَّ إقفال للعقل والفكر ، ومن المفارقات العجيبة أن الشوكاني وابن الأمير وغيرهم من علماء اليمن المُتأخِّرين قد اغترفوا من ضمن ما اغترفوا من بحار علوم الحافظ ابن حجر ، ولكنَّهم اجتهدوا وبقي هو مُقلِّداً ، فعلماء اليمن شقّوا لهم طريقًا في الاجتهاد نتيجة لأسباب معيَّنة توفَّرت لهم دون غيرهم .

[س٢٠] بحكم التصاقكم بفكر شيخ الإسلام محمَّد بن عليَ الشَّوكاني ، بماذا تميَّزَ به الشَّوكاني عن غيره من العلماء حتَّى أصبح له هذا الصِّيت دون غيره ؟ .

[جـ] الواقع أنَّ الشَّوكانيّ لم يتميَّزْ عن غيره من علماء اليمن الأربعة والَّذين ذكرتهم سالفاً وهم ابن الأمير والوزير والمقبلي والجلال ، إلاَّ أنَّ أسبابًا معيَّنة قَدْ توفَّرت لظهور فكره ، فهو أوَّلاً كان يشغل منصب القضاء بصنعاء أيَّام حكم الإمام المنصور ، وهذا سبب لمعرفة أكبر قدر من النَّاس بأفكار الرَّجل ، ثُمَّ قد قام بعمل لم يسبقه إليه العلماء سواء من علماء المذاهب الأربعة ، أو من علماء الزَّيديَّة ، حيث قام هو بشرح كتاب « منتقى الأخبار » هذا الكتاب المشهور الَّذي طالما تمنَّى له النَّاس شرحًا في القرن السَّابع حتَّى جاء الإمام الشَّوكاني في القرن الثالث عشر ، وشرح الكتاب شرحًا جيِّداً ، وأسماه « نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار » وقد انتشر هذا الكتاب بين الأمصار نتيجة لأهمّيته ونتيجة للفهم والعلم الذي عرف به الشَّوكاني حيث أصبح يقرأ في مصر والشَّام وبلاد الهند وسمرقند حتَّى أنَّ أهل المغرب العربيّ يتداولون حكمة مفادها « بعْ الدارَ واقتن نيل الأوطار » [١] .

وقد اشتهر الشَّوكاني باجتهاده وخروجه على مذهبه ، فابن تيميَّة وابن القيِّم يقولون إنَّهم مجتهدون والحقيقة إنَّهم ليسوا كذلك ، وإنَّما هم من أتباع الإمام أحمد

---

(١) المثل المشهور : هو « بع الدار ، واشتر الأذكار » ، والأذكار كتاب مُفيد للإمام النَّووي .

بن حنبل ، ولذلك لا تجد في آرائهم اعتراضًا على فقه الإمام أحمد ، ولكنَّهم ينتقدون غيره ، وهذا بخلاف الشَّوكاني فقد كان ينتقد كل الآراء الَّتي تُخالف عقله واجتهاده بما فيها مذهبه الزَّيديّ نفسه .

ولاشكَّ أنَّ الشَّوكاني كان من دعاة الوحدة بين المسلمين ، وقد كلفته آراؤه الكثير حيث اتَّهمه البعض بالتَّهجُّم على المذهب الزَّيدي ، والواقع أنَّه لم يُهاجم المذهب ، ولكنه حاول جمع الشَّتات وتأليف القلوب ، وقد كان هذا خطه حتَّى مع من اتَّهمه بالشِّرك والبدعة ، ففي قصيدته التي بعث بها إلى علماء نجد ، يذكر فيها أنَّ الأمة واحدة ، وأنَّ أهل اليمن ليسوا أصحاب بدعة ، وإنَّما هم مسلمون مرجعهم كتاب الله والسُّنَّة ويُعاتبهم فيها على اتهامهم النَّاس وتكفيرهم .

ويقول فيها :

ألما تعلمون أنا وأنتم ... على صوب الصواب لنا قعود
ونهج الحق لا نبغي سواه ... إليه جل مقصدنا يعود
وأنا نجعل القرآن جسرًا ... فمصدرنا إليه والورود
نرد إلى الكتاب إذا اختلفنا ... مقالتنا وليس لذا جحود
كذلك إلى مقام الطهر طه ... نرد وفي الكتاب لذا شهود

إلي أن يقول فى قصيدته :

مضى خير القرون ومن تلاه ... ولا قيل ولا قال ولود
ومشروب ديننا عذب فرات ... وورد لا يكدره الورود
ولم يتلاعب الأقوام يومًا ... بآراء إلى بدع تقود
وما قالوا بتكفير لقوم ... لهم بدع على الإسلام سود

إلى آخر القصيدة وهي طويلة وكلها مملوءة بالوحدة والحب ، فقد كان الشَّوكانيّ من دعاة الوحدة في عصر اتَّسم بالجمود والتَّعصّبات .

[س٢١] شهدت اليمن في القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر الهجريين حركة فكريَّة لا مثيل لها في البلاد الإسلاميَّة وكان من روَّاد هذه الحركة القاضي محمد بن علي الشوكاني ، فما أبرز ملامح التَّجديد لدى الشَّوكاني ؟.

[جـ] في كل من القرن الحادي عشر والثَّاني عشر والثَّالث عشر من الهجرة ظهرت في اليمن حركة علميَّة ، وتحرر فكري ، واجتهاد مطلق لم يوجد مثله في بلاد الشَّام أو مصر أو المغرب في ذلك العصر ، وذلك لأنَّ المذهب الزَّيدي يُقرر أنَّ كل مجتهد مُصيب ، وأنَّ العالم إذا حاز علوم الاجتهاد فعليه أن يجتهد ولا يُقلِّد ، لأجل هذا ظهرت حرية فكريَّة كان على رأسها السَّيِّد حسن الجلال مؤلف « ضوء النَّهار » وغيره ، والعلاَّمة صالح بن مهدي المقبلي صاحب « العلم الشَّامخ » وغيره ، ثُمَّ ظهر الشَّيخ العلاَّمة محمد بن إسماعيل الأمير الصَّنعاني بكتابيه « سبل السَّلام » و« منحة الغفَّار » وغيرهما ، ثم جاء بعده شيخ الإسلام القاضي العلاَّمة محمَّد بن عليّ الشوكانيّ الذي كان في غاية من الاجتهاد ، ومن الاستقلال في الفكر منذ صغره ، فقد بدأ يقرأ « شرح الأزهار » وعمره نحو أربعة عشر عاماً .

وعندما كان الشَّيخ الَّذي قرأ عليه يقول : قال الشَّافعي كذا ، قال أبو حنيفة كذا، قال الهادي كذا ، يُفكر في ذلك ويسأل : أيُّهما أصح من هذه الأقوال ؟ ، فكان الشَّيخ يُجيبه في كلِّ مسألة : الذي عليه علامة حمراء – يعني كلام الإمام المهديّ في المذهب الزَّيدي – هو الأصح ، قال : لا يُمكن أن يكون الحقّ معه في ألف مسألة من أوَّل شرح الأزهار إلى آخره ، فلابُدَّ أن يُخْطئ مرَّة ويُصيب أخرى ، والشَّافعيّ هكذا ، وكذلك أبو حنيفة ، ولذا فأنا أُريدُ أن تُخبروني أين الصَّواب في كل مسألة ، فقال له أبوه : نحن نعلمك المذهب الزَّيدي تقليداً ، ولا يستطيع أحد أن يُرجح في كل مسألة أي قول من الأقوال أصح ، من أول الكتاب إلى آخره إلاَّ العلامة المجتهد ، قال : هل يوجد في اليمن علاَّمة مجتهد يستطيع أن يُقارن بين المذاهب ،

ويرجح في كلّ مسألة القول الصحيح عنده ؟ ، قال : نعم ، قال : من هو ؟ ، قال : العلاَّمة عبد القادر بن أحمد صاحب مدينة كوكبان ، حتَّى أعرف ما هو الرَّاجح والمرجوح من أوَّل مسائل شرح الأزهار إلى آخرها ، قال : اقرأ علوم اللغة ، وعلوم الاجتهاد ، وهناك ستستطيع أن تعمل كل شيء وفعلاً بدأ يقرأ علوم النَّحو والصَّرف ، والمعاني والبيان والأصول ، وعلوم الحديث ، وكتب التَّفسير وغيرها ، ولم تمض عليه عشر سنوات حتَّى أصبح مُجتهداً اجتهاداً مُطلقاً ، ولما دخل السَّيِّد العلاَّمة عبد القادر بن أحمد إلى صنعاء ، وزاره علماؤها ليدرسوا عنده ، كان منهم الإمام الشَّوكانيّ ، فدرس عنده إلى موته ، وحينها كان قد بدأ يُؤلف بعض مؤلفاته .

[س٢٢] هل هناك صلة بين الحركة الشَّوكانيَّة في الهند والقاضي الشَّوكاني ؟ .

[**جـ**] نعم ، هناك صلة قديمة بدأت بواسطة شاب هندي يُسمَّى عبد الحقّ الهندي ، وكان عالمًا نشيطاً ، سافر من الهند إلى مكَّة والمدينة ، ثم إلى صنعاء وفيها أخذ عن الشَّوكانيّ بعض علومه ومؤلفاته ، ودرسها عليه ، وأجازه الشَّوكانيّ إجازة عامة ، ولَّما رجع بعدها إلى الهند نشرَ علم الشَّوكانيّ في بلاده ثم ظهر بعده صديق حسن خان القنوجي ، وكان من العلماء الأغنياء ، وسبب غناه أن أحد ملوك الهند بمقاطعة « بهوبال » كانت لديه بنت لا تُريد الزَّواج إلاَّ من رجُلٍ فقيه عالم ، فزوجها بصديق حسن ، ثمَّ من حُسن حظّه أن تُوفيَ ملك بهوبال ، والقاعدة عندهم أن يتولَّى الحكم أولاده ؛ ولأنَّه لم يُنجب غير بنت واحدة ، ولا يُفلح قوم ولوا أمرهم امرأة نقلت زوجة صديق الملك إليه ، وسمَّته : « الملك النوَّاب صديق حسن خان نائب الملكة » .

ومن هنا استطاع أن يشتري مطبعة لأوَّل مرَّة ، وكانت لا توجد إلاَّ في استانبول والقاهرة ، وعندها أرسل إلى زبيد ومكَّة وصنعاء من يشتري له مؤلَّفات الشَّوكاني المخطوطة كلها ، ومن هنا انتشرت آراء الشَّوكاني ، وأوَّل ما طُبعت مؤلفات الشَّوكاني

في الهند قبل أكثر من مئة عام ، حيث طُبع « نيل الأوطار » و« إتحاف الأكابر في مسندات الدَّفاتر » وغيرهما ، لذا فصديق حسن خان يقول في مؤلَّفاته : « قال شيخي الشَّوكانيّ » ، وليس بشيخه وإنَّما شيخ شيخه ، أو شيخه بمطالعة مؤلَّفاته ؛ لأنَّ الشَّوكانيّ توفي سنة ١٢٥٠ هـ في صنعاء ، وصديق خان إذ ذاك كان طفلاً عند وفاة الشَّوكانيّ ، حيثُ وُلِدَ في (١٢٤٦هـ) ، وكان بواسطة عبد الحقّ الهندي أو غيره ، أو بواسطة بيت الحازمي ، وهم سادة وعلماء في « صبيا » وكانوا يدرسون في صنعاء ويشترون مؤلَّفات الشَّوكانيّ وينقلونها إلى « صبيا » ثم جاءت رسل صديق حسن واشتروا له الكتب بواسطة بيت الحازمي ، وبواسطة القاضي محسن السبيعي أحد علماء « صبيا » .

[س٢٣] يذكر أنَّكم كنتم أوَّل من أحيا تراث الشَّوكاني وقام بتدريسه في الجامع الكبير ، فلماذا الشَّوكاني ؟ وهل وجدتم مواجهة من قبل متعصبة المذهب ؟ وكيف عالجتموها ؟ .

[**جـ**] في الحقيقة أنا مجرَّد رجل عادي ولست أول من أحيا تراث الإمام الشَّوكاني – رحمه الله – فقد كانت بعض كتبه ومؤلفاته تُدَرَّس في جامع اسمه جامع الفليحي ، وبعض مؤلَّفاته كانت تُدرَّس في البيوت مثل كتابي « نيل الأوطار » و« فتح القدير » وكانوا يدرسونهما في مسجد الفليحي ، وهذان الكتابان يعتبران من مؤلَّفات الإمام الشَّوكاني الهادئة أمَّا بالنِّسبة لمؤلَّفاته الشَّديدة الَّتي تُناقش قضايا مهمَّة مثل كتاب « السَّيل الجرَّار » وكتاب « وبل الغمام » فهذه الكتب قمتُ بتدريسها بنفسي ، فإذا أردت أن تجعلني أوَّل من أحياها ، فأنا أول من أحيا ودرس كتب الإمام الشوكاني ومؤلفاته الشَّديدة السَّابقة الذكر في المسجد ، فلقد درستُ كتاب « السَّيل الجرَّار » في أيام الملكيَّة في مسجد الفليحي ، ودرست كتاب « وبل الغمام » و «السَّيل الجرَّار » بعد ذلك في مسجد الزَّبيري .

وأذكر أنني في أيام الملكيَّة عندما بدأتُ أدرس كتاب « الدَّراري المضية » ، وكان الطَّلبة في ذلك الوقت قليلين ، وشى بي بعض من لا أعرفه عند السيد قاسم العزِّي ناظر الأوقاف ، وهو يُعتبر آنذاك زعيم المحافظين على المذهب الزَّيدي ، وقد كان دائمًا ما يُسبب لنا المضايقات ، ومن جملة ما فعله معي أنَّه ذات مرَّة توعَّدني وهدَّدني بأنَّه سيقوم بإبلاغ الإمام أحمد يحيى حميد الدين ، وقد كان الإمام في تلك الأيَّام في مدينة تعز ، وأنَّه سيُخبره بما أفعل ، وأني أُعارض المذهب ، وأُعلِّم الطلاب كذا وكذا، حينذاك قمتُ بكتابة خطاب إلى الإمام ، ولكي أضمن وصوله إلى يد الإمام مُباشرة ذهبتُ إلى السَّيِّد محمد بن زبارة ، وهو من المقربين إلى الإمام ، فقلتُ له : أُريدُ منكم أن تعينوني على إيصالِ هذه الرِّسالة بجانب رسالتكم الَّتي تصل إلى يد الإمام نفسه إن شاء الله ، قال زبارة : حسنًا ولكن بشرط . قلت : ما هو ؟ ، قال : ألاَّ يعلم أحد أنِّي قُمْتُ بمساعدتك في إيصال هذه الرِّسالة ، وخاصة السيد قاسم العزِّي ؛ لأننا أصدقاء ، وإذا علم بالأمر فسوف يحصل بيني وبينه سوء تفاهم .

قلتُ له : حسنًا ، وكنت قد كتبتُ إلى الإمام في رسالتي له : « إنَّ السَّيِّد قاسم العزِّي يُعارضني فيما أدرس من كتب الحديث للإمام البخاري ومسلم وسنن أبي داود ويقول : إنكم منعتم ذلك ، فإذا كان ما قاله صحيحًا امتنعتُ وسأمتثل لأمر الإمام ، أمَّا إن كان هذا الكلام من عند قاسم العزي ، وأنه يتدخَّل في الشؤون الخاصَّة ما بين الإمام وطلبة العلم فهذا الأمر لا يُرضيكم ، والسَّلام عليكم ورحمة الله » .

وبعد فترة أجاب الإمام على خِطابي قائلاً : « عافاكم الله ، لا تظن أبدًا أني أمنع دراسة كتب الحديث في المساجد وأخذ العلم عن رجل عاقل ، فضلاً عن رجل عالم، فاستمروا على ما أنتم عليه وأقرئ وعلِّم الطَّلبة الأمهات الستَّة وغيرها ، ولكن ترغيمًا للشيطان وإرضاء للرحمن وقطعًا للسان يُمكن أن تجمعوا بين الشَّيئين، فتُعلموا الطَّلبة (شفاء) الأمير الحسين من كتب الزَّيديَّة ، وتعلموهم البخاري ومسلم وغيرهما من السنَّة ، وتُسكتوا بذلك كل لسان وإنسان » .

وبالفعل وصل جواب الإمام فأرسل السَّيِّد محمَّد زبارة في طلبي ، فذهبتُ إليه ، فلمَّا وصلتُ قال : هذا جواب الإمام اقرأه عليَّ وأنت واقف أمامي ، وبالفعل قرأتُ عليه جواب الإمام كاملاً وهو جالس في مكانه ، وبعد أن انتهيت قال : رجاء لا أُريد أن يعرف أحد بهذا ، ثُمَّ خرجْتُ من عنده وبعدها وجدْتُ الكاتب التَّابع لناظر الأوقاف قاسم العزِّي ، فأريته الخطاب ، وقلتُ : خطٌّ من هذا ؟ قال : خطُّ الإمام ، قلت : إذن اقرأ المكتوب ، وبعد أن انتهى من قراءته قلتُ : قلْ لناظر الأوقاف : أنَّ العمراني لديه أمر من الإمام أن أُعلِّم الطُّلاَّب بلا قيد أو شرط إلاَّ شرطًا واحدًا ، فقال لي الكاتب : أعطني الخطاب ، فقلتُ : لا أعطيكه أبدًا وسيبقى معي – وذلك لأنه في تلك الأيَّام لا يوجد ماكينة تصوير للرسائل – ، وقل ما قلْتُ لك فقط .

فذهب الكاتب إلى قاسم العزي وأخبره بالأمر الَّذي معي من الإمام ، ثُمَّ أخذ قاسم العزي عصاه الَّتي يتوكَّأ عليها وذهب إلى بيت محمد زبارة غاضبًا ، ودخل منزله ، فقال لزبارة : ماذا بك يا صنو [1] محمد تُريد أن تنشر الفوضى ؟ ، قال : ما تقول يا صنو قاسم ؟ قال : قد جاء العمراني وفي يده أمرٌ من الإمام أحمد ، فلا أعلم أحدًا يُمكن أن يوصل رسالة العمراني إلى يد الإمام سواك ، وما خصمي إلاَّ أنت يا صنو زبارة ، ولن يساعده أحد غيرك ، قال زبَّارة : أبعدْ عنك الأوهام والخيال يا صنو قاسم ، فلقد أتى العمراني إليَّ صباح اليوم وقرأ عليَّ خطاب الإمام وأنا جالسٌ في هذا المكان وهو واقف أمامي حتَّى انتهى من خطابه ، قال العزيّ : أخطأتُ ظننتُ أنَّه أنت، قال زبارة : يا صنو قاسم ، السَّادة هم المساكين ، أنا وأنت ، أمَّا القضاة فهم متعاونون فيما بينهم ، فكل من القاضي الحلالي والقاضي العمري صديق للعمراني ، والقاضي عبد الله الشَّوكاني وبيت مطهر هم أصهاره ، وهؤلاء كلهم موظَّفون لدى الإمام ، وأيّ واحد فيهم يُمكن أن يُساعد العمراني .

---

(١) صنو : كلمة كانت تُستخدم في اليمن قبل الثورة بمعنى الأخ ، وفي الحديث الصحيح : « العباس صنو أبي» .

وأذكر قصّة أخرى حدثت قبل ثورة السادس والعشرين من سبتمبر (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م) ، فقد كُنت أدرس الطّلبة كتاب « السّيل الجرّار » في رمضان ، ومن ثمّ ذهب أحد الأشخاص إلى الأخ يحيى محمّد عبّاس - الّذي كان في ذلك الوقت رئيس الاستئناف ، وقد قُتل يوم الثّورة - فذكر له أني أدرس قضايا مهمّة ، وأني ضد المذهب ، وأني أدرس كتاب « السّيل الجرّار » للشوكاني ، فقام يحيى عبّاس بإرسال رسالة إلى الإمام يشكوني فيها ، وبعد فترة رأيتُ أحد موظفي المواصلات ، فقال لي : ما الذي بينك وبين يحيى عبّاس يا قاضي محمد ؟ ، قلتُ : لا شيء ، قال : لقد كتبَ يحيى عبّاس ضدك برقيّة إلى الإمام ، فما ظننت أبداً أنه سيُرسل بالرسالة هذه من أجل التّدريس في المسجد ، ولكن ظننت أنّه من أجل الوظيفة التي كنت مُكلفًا بها في مقام البدر ومقام النّائب ، وكنتُ أقوم بعمل الأوامر وإنجاز الأعمال [1] ، فقلتُ : ربّما لم تعجبه طريقتي في إنجاز الأعمال ، أخيراً وصلْتُ الشّكوى إلى الإمام ، فقام الإمام وخاطب السيد عبد الله عبد الكريم وهو زوج ابنته وقال له : أخبرالقاضي عبد الرحمن العمراني أن يُخبر أخاه القاضي محمّد العمراني أن يتجنّب عمل المشاكل وإثارة الفتن والفوضى في صنعاء ولولا أنّي أعرف العمراني وعقيدته لكنتُ صدقت ما قيل عنه ، لكن ربّما يندسُّ بعض الأشخاص بجانب العمراني ، فيُثيرون الفتن ويكون الضّحيّة العمراني ، فقلْ لأخيك ليكنْ إنساناً عاقلاً ، فكتب لي أخي القاضي عبد الرحمن العمراني ، وقال : لابُدّ يا أخي محمّد أن تتورّع وتكون عاقلاً ، وأعلم أنّك لا تدرس إلاّ في رمضان ، فعلّم الطّلبة بهدوء ، وتجنّب المشاكل ، وبعد ذلك لم يأت رمضان الآخر إلاّ وقد قامت الثّورة وانتهت المشكلة .

(١) لأن يحيى محمد عباس ، كان يتطفل ويتدخّل في عمل القاضي العمراني ، وكأن القاضي منعه من ذلك بطريقة ما ، ولذلك ظنّ القاضي أنّ الشكوى بهذا السبب ، ولم يتوقع أنها بسبب التّعصب .

[س٢٤] المذهب الزَّيدي يجهله كثير من أبناء العالم الإسلامي ، فهل يُمكنكم إعطاؤنا نبذة مختصرة عن نشأته وظروف هذه النَّشأة، وأصول المذهب، وأبرز رجالاته ؟ .

[جـ] أوَّل من أصَّل أصول المذهب الزَّيدي هو « زيد بن علي » ، ثم انقسم المذهب إلى فرعين هما : المذهب الناصري ، والمذهب الهادوي ، فالمذهب الناصري، ذهب به الحسن الأطروش من المدينة إلى بلاد « الجيل والديلم » في إيران ، ونشر المذهب هناك وبقي نحو (٤٠٠) عام ، ثم انقرض المذهب الزَّيدي هناك ، ويُسمَّى المذهب الزَّيدي في الأصول والناصري في الفقه ، أمَّا اليمن ، فقد وصل الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم إلى اليمن في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّالث من الهجرة .

والمذهب الزَّيدي في العقائد يُشبه المذهب المعتزلي إلاَّ أنه يختلف معه في مسألة الإمامة ، فالمعتزلة يقولون : خليفة النَّبي أبو بكر ، والزَّيدي يقول : الخليفة عليّ بن أبي طالب ، إلاَّ أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان قد أدُّوا الواجب والمسنون وعملوا كل شيء ، وسدوا الفراغ ، ولذا فالمذهب الزَّيدي يحترم الخلفاء الثَّلاثة ، لكن لا يعترف إلاَّ لعلي بن أبي طالب ، ثم أصبح زيدية اليمن على مذهب الإمام الهادي ، ومن جملة محاسن المذهب الزَّيدي أنَّه يفتح باب الاجتهاد لمن يُريد أن يجتهد ، أمَّا في الفقه فهو مأخوذ من المذهب الحنفي ، والمذهب الزَّيدي الهادوي لا يخرج إلاَّ نادراً عن المذاهب الأربعة ، وهو يُوافق في أكثر المسائل واحداً منها ولاسيّما المذهب الحنفي ، إذ هما أخوان متقاربان .

[س٢٥] لكل مذهب من المذاهب الفقهيَّة إيجابيَّات بارزة ، فما أبرز إيجابيَّات المذهب الزَّيدي ؟ .

[**جـ**] أنَّهم فتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه من أيَّام الإمام الهادي إلى عصرنا هذا وخصوصاً باب الاجتهاد المطلق بينما بقيَّة المذاهب الأخرى يبقى علماؤها مقيَّدين بالمذهب ، فمثلاً بقي ابن حجر العسقلاني شافعي المذهب ، وكذا الإمام النَّوويّ ، وبقي ابن عبد البر والقرطبي مالكيين ، أمَّا علماء المذهب الزيدي فقد فتحوا باب الاجتهاد وهذه ميزته ، لقد أخرج لنا المذهب الزَّيدي علماء أحرارا مُجتهدين ، منهم الجلال الذي يقول :

لولا محبَّة قدوتي بمحمَّد ... زاحمت رسطاليس في أبوابه

فالمشكلات شواهد لي أنني ... أشرقت كل محقق بلعابه

ومنهم المقبلي الذي قال في أوَّل كتاب « العلم الشَّامخ » : « ها أنا ذاهب إلى ربي سيهدين » يقصد : من العلماء من صار شافعيًا أو زيديًا أو حنبليًا أما أنا فذاهب إلى ربِّي سيهدين ، وأعلن اجتهاده المطلق ، وأخرج المذهب الزَّيدي أيضًا العلاَّمة المجتهد محمد بن إسماعيل الأمير مؤلف « سبل السَّلام » و« منحة الغفار » ، الَّذي برزت مؤلفاته في الأصول والحديث والفقه وغيره فمن أهم ما يتميَّز به المذهب الزَّيدي أنه فتح باب الاجتهاد انطلاقًا من القاعدة المذكورة في أول متن « الأزهار » : « أنَّ كل مجتهد مصيب » .

[س٢٦] ما أهم الكتب المؤلفة فيه لإحالة القارئ إليها للاطلاع؟ ثم مامدى قربه من المذاهب الأربعة ؟ .

[**جـ**] سبق أن قلت أنه يتقارب كثيراً مع المذهب الحنفي ونادراً مع المذهب الحنبلي ، أما الكتب المؤلفة في المذهب فهي كثيرة جداً ، ومما طبع منها : كتاب «الأحكام » للإمام الهادي ، و« شفاء الأوام » للأمير الحسين ، وكذا متن « الأزهار»

وشرحه « المنتزع المختار من الغيث المدرار » المشهور بـ « شرح الأزهار » ، و« التاج المذهب » ، و« الرَّوض النَّضير » شرح « مجموع زيد بن علي » ، و« البحر الزَّخَّار الجامع لمذاهب علماء الأمصار » ، وشرح « الفرائض » .

[س٢٧] ما مدى تأثير المذهب الجعفري على المذهب الزيدي اليوم ، ومن يقود العمل في هذا الاتجاه ؟ ، وما أبرز نقاط الالتقاء والافتراق بين المذهبين ؟ وما الأهداف الخفيَّة وراء تهميش المذهب الزَّيدي وطغيان المذهب الجعفريّ ؟ .

[**جـ**] المذهب الزَّيدي غير المذهب الجعفري وبينهما بون شاسع ، فالجعفري يقول مثلا بعصمة الأئمة أما الزَّيديَّة فلا تقول بعصمتهم ؛ الجعفريّ يقول بأنَّ الأئمَّة اثنا عشر إمامًا فقط ، أحد عشر مضوا ، والثاني عشر سيأتي في آخر الزَّمان ، بينما الزَّيديّ يقول بأنَّ من كان قويّاً عالمًا مجتهداً صالحًا سخيًا شجاعًا علويًا فاطميًا يصلح أن يكون إمامً ، كذلك الجعفري يقول بنكاح المتعة بينما الزَّيدي لا يقول بذلك ، لكن مع الأسف الشَّديد أنَّ بعض الزَّيديَّة في هذا العصر خلطوا فأصبحوا يقرأون كتب الجعفريَّة ، ويفتون بأنَّ أهل البيت مظلومون ، وكذا وكذا ... مثلما يفعل الجعفريَّة مع أن الجعفريَّة لا يعترفون إلاَّ بالاثنى عشر إمامًا ليس منهم الإمام زيد بن علي ، ولا الإمام الهادي ، ومع أنَّ الإمام زيد بن علي بريء منهم وسمَّاهم الرافضة ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الرَّافضة . وكذلك الإمام الهادي في كتاب « الأحكام » كان يتبرأ منهم ، فهذا مذهب وهذا مذهب ، وبينهما فرق كبير .

ومِمَّا يتميَّز به المذهب الزَّيدي : التَّسامح وعدم التَّعصب ، فهم يقولون : « كل مسألة خلافيَّة خرج وقتها فلا قضاء فيها » ، ففي المذهب الزَّيدي مثلاً إذا صلَّى إنسان وترك بعض الواجبات ناسيًا ، فإنَّه لا يقضيها إذا انقضى الوقت ؛ لأنَّ المسألة فيها

خلاف بين المذاهب ، وهذا مما يدل على تسامحهم ، كذلك يقولون : « لا إنكار في مختلف فيه » وعليه فلا يجوز الإنكار على من خالف المذهب ووافق المذهب الشَّافعي، أو الحنفي ، مما يدل على حريتهم وإنصافهم وأيضًا يقولون : الإمام في الصلاة حاكم، فصلِ خلف الشَّافعي أو المالكي وصلاتك صحيحة ، ولا يقولون بوجوب الصَّلاة خلف إمام المذهب .

لكن يُؤخذ على أصحاب المذهب الزَّيدي الانزواء ، وأنَّهم لم يقوموا بنشر مؤلَّفاتهم والتَّعريف بها في الخارج ، ولقد كان للموقع الجغرافي أثره في ضعف انتشار المذهب ، فاليمن لا يقع بها طرق الحجاج ولا التجارة ولا السياحة ولا غيرهم ، بخلاف بلاد المغرب ومصر والشام ؛ لأجل هذا لم يكن يعرف كثير من العلماء هذا المذهب إلاَّ أنه عرف بعد ذلك في أوساط العلماء لاسيَّما المختصين بالفقه المقارن .

[س٢٨] ما الجارودية ؟ وما علاقتها بالزَّيديَّة ؟ .

[**جـ**] الزيدي إذا تعصب يُسمَّى جاروديا ، نسبة إلى المنذر بن عمر أبي الجارود ، فهو من الذين يسبون الخلفاء ، فيُسمى زيدي جارودي .

[س٢٩] فضيلة القاضي ، هلا تكرمتم بإعطائنا فكرة عن شروط الفتوى والمفتي عند سلفنا ؟ ، وأين نجد الفتاوى الصَّادرة عنكم للإذاعة مجموعة ؟ .

[**جـ**] تلبية لطلبكم مني الإفادة عن رأيي في شروط المفتي في نظر السَّلف الصَّالح لما للفتوى من خطورة كبيرة حيث فيها التَّحريم والتَّحليل أُحيطكم علمًا وأحيط القرَّاء أنَّ الفتوى في الإسلام مشكلة كبرى ، وقد جاء في « سنن أبي داود » عن أبي هريرة مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أنَّه قال : « **من قال عليَّ ما لم أقل ، فليتبوَّأ**

بيتاً في جهنَّم ، ومن أفتى بغير علم فعمل بفتواه كان إثمه على من أفتاه ...» كما جاء في الأثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال : « من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السَّموات والأرض » .

ولقد قال ابن القيِّم قدَّس الله روحه : « أيها المفتي انظر بالنِّيابة عمن تفتي .. إنَّك توقع بالنِّيابة عن الله عزَّ وجلَّ » .

وبالنسبة إلي شروط المفتى :

شرطه ، كما قال العلماء أن يكون عالماً بالكتاب والسُّنَّة ، صريحًا في قول الحق لا يخشى لومة لائم ، وأن يتوقَّف في المسائل الَّتي لا يستطيع أن يجزم فيها بحكم من الأحكام الشَّرعيَّة الخمسة ، ويقول : الله أعلم ، أو لا أدري ، إذا لم يعلم بجوابها ، وأن لا يتهافت على الإفتاء ، وإذا رأى غيره قد كفاه الجواب فلا يدس أنفه ويحشر نفسه ويُجيب هو بجواب قد تولاَّه غيره من العلماء واقتنع به السَّائل ، اللهم إذا علم أنَّ الفتوى من غيره قد صادمت نصّاً صريحًا في الدلالة على ضد ما أفتى به المفتي وجزم به أو أفتى بصحَّة حديث وليس بصحيح عند جمهور الحفَّاظ أصحاب الاختصاص ، فله الحق في التَّدخُّل خدمة للعلم ، وذبّاً عن السُّنَّة الصَّحيحة وبراءة للذمَّة .

وقد قال الإمام الشَّافعي ـ رحمه الله ـ : لا يحل لرجل أن يفتي في دين الله إلاَّ رجلاً عارفًا بكتاب الله تعالى بصيراً بحديث رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بصيراً باللغة الفصحى والشعر الجيِّد ، وما يحتاج إليه منهما في فهم القرآن والسنَّة ويكون مع هذا مشرفًا على اختلاف الأمصار وتكون له قريحة وقَّادة .

فإذا بلغ هذه الدَّرجة فله أن يُفتي في دين الله تعالى ويُبيِّن الحلال والحرام ، وإذا لم يكن هكذا ، فليس به أن يُفتي ، وقيل للقاضي يحيى بن أكثم [1] : متى يحل

---

(١) هو القاضي المشهور بالعلم والذكاء ولا صحَّة لما اتهم به من حبه للمردان ، وما هي إلاَّ دعاية من أعدائه ، وحسبه أنَّ الإمام أحمد قد عدله ، وقبل أحاديث الترمذي .

للرجل أن يفتي ؟ . فقال : إذا كان بصيراً بالرأي بصيراً بالأثر ، يُريد بالرأي فهم معاني النصوص وعللها الصَّحيحة الَّتي ناط الشَّارع بها الأحكام ، ويُريدُ بالأثر السنن الثَّابتة عن الرسول ﷺ .

ولقد قال الحافظ ابن عبد البرّ في « التَّمهيد » في باب مناقب مالك : أخبرنا خلف ابن القاسم قال : أخبرنا أبو الميمون قال حدَّثنا أبو زرعة حدَّثني الوليد بن عتبة حدَّثنا الهيثم ابن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سُئل عن ثمانية وأربعين مسألة ، فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري .

وقال أبو نعيم في « الحلية » : حدَّثنا أبو محمد بن حيَّان (وهو أبو الشيخ) حدثنا محمد بن أحمد بن عمرو قال : حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن كليب قال : حدَّثني أبو طالب عن ابن عبد الله قال : سمعت ابن مهدي يقول : « سأل رجل مالكاً عن مسألة فقال : لا أحسنها ، فقال الرَّجل : إنِّي ضربت إليك من كذا وكذا سألك عنها ، فقال مالك : إذا رجعت إلى مكانك وموضعك ، فأخبرهم أني قلت لك : إني لا أحسنها » .

وقال البيهقي في « المدخل » : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال : سمعت أبا عبد الله محمَّد بن عبد الله الصفَّار يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : سمعت محمَّد بن عجلان يقول : إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله . قال العلاَّمة المعاصر حمدي بن عبد المجيد السَّلفي : وإسناده صحيح . وفي « فتاوى أبي عاصم العبادي » من الشَّافعيَّة : وسُئل أبو حنيفة عن خمس مسائل قال فيها : لا أعلم . أحدهما : أطفال المشركين ، الثَّانية : وقت الختان ، الثَّالثة : الخنثى ، الذي له آلة الرَّجل [1] ، الرَّابعة : لا يكلم فلاناً دهراً ، الخامسة : هل يجوز للقيم نقش جدار المسجد من غلَّة الوقف ؟ .

---

(١) والظَّاهر أنه سقط « وآلة الأنثى » والله أعلم .

بل قد جاء في كتب السُّنَّة ما يدل على مشروعيَّة قول المسؤول عن شيء لا يعلمه : لا أدري ، وهو ما أخرجه الحاكم في « المستدرك » عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنَّ رجلاً أتى النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله ، أي البلدان شر ؟ ، قال : « **لا أدري** » ، فلمَّا أتاه جبريل قال : يا جبريل ، أي البلدان شر ؟ ، قال : لا أدري ، حتَّى أسأل ربي فانطلق جبريل فمكث ما شاء الله وأن يمكث ، ثم جاء فقال : يا محمد ، إنَّك سألتني أي البلدان شر ؟ ، وإنِّي قلتُ لك : لا أدري ، وإنِّي سألتُ ربِّي فقلت : أي البلدان شر ؟ فقال : أسواقها . ثم قال الحاكم : قد احتجَّا جميعًا (أي البخاري ومسلم) بروايته إلاَّ ابن عقيل ، وقال : صحيح الإسناد ، وهذا الحديث في قول العالم لا أدري ، وقد أخرجه أيضًا أحمد وأبو يعلى والبزَّار والطَّبراني والخطيب في « الفقه والمتفقه » ، وقد رواه قيس بن الرَّبيع وعمرو بن ثابت بن المقدام عن عبد الله بن محمَّد بن عقيل ، وتعقَّبه الذَّهبي بقوله : زهير (يعني ابن محمَّد) ذو مناكير ، هذا منها ، وابن عقيل فيه لين وزهير بن محمد قد تابعه قيس وعمرو ابن ثابت ، كما ذكر الحاكم ، فانحصرت العلَّة في ابن عقيل .ورواه الطَّبراني من طريق قيس به .

وأمَّا الهيثمي ، فقد قال في « المجمع » : ورجال الصَّحيح خلا عبد الله بن محمَّد بن عقيل ، وهو حسن الحديث وفيه كلام ، وذكره مرَّة أخرى وقال : رواه البزَّار وفيه محمَّد بن عبد الله بن عقيل وهو مختلف في الاحتجاج به ، ورواية عمرو بن ثابت التي نوَّه بها الحاكم أخرجها في مستدركه ، وعمرو وقيس وإن كان منها فقال فهما يشدان من عضد زهير بن محمد ورواه الطَّبراني وابن حبَّان والحاكم من حديث ابن عمر ، وقال الهيثمي : فيه عطاء بن السَّائب وهو ثقة ولكنَّه اختلط في آخر عمره، وبقيَّة رجاله موثوقون .

قال العلاَّمة المعاصر حمدي بن عبد المجيد السَّلفي في تعليقاته على كتاب «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر »: قلت : فروايته تقوي رواية ابن عقيل،

والله أعلم . وروى ابن بكاء عن مالك .. عن داود بن الحصين عن طاووس عن ابن عمر ﷺ قال : « العلم ثلاثة : كتاب ناطق ، وسُنَّة قائمة ، ولا أدري » . وأخرجه الطَّبراني في «الأوسط » من حديث أنس ، قال الهيثمي : فيه عبيد بن واقد القتبي وهو ضعيف .

وروي عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قال : « لا أعلم ثلث العلم » ، وجاء عن الشَّعبي أنَّه قال : لا أدري نصف العلم . رواه الخطيب في كتاب « الفقيه والمتفقِّه » ، وقد روي عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى وهو من كبار التَّابعين أنَّه قال : أدركتُ عشرين ومئة من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يسأل عن شيء إلاَّ ودَّ أنَّ أخاه كفاه .

بل كان من السَّلف من يخاف من الإفتاء ويندم لصدوره منه ، قال سحنون يوماً: لا إله إلا الله ما أشقى المفتي والحاكم ، ها أنا ذا يتعلم منِّي ما تضرب به الرقاب وتؤخذ به الحقوق .

أما كنت عن هذا غنيا ، ويكفي في الدلالة على كون الإفتاء فيه خطر عظيم أنَّ الصَّحابة الذين تُوفيَ عنهم رسول الله ﷺ كثيرون ، حيث كانوا حوالي مئة ألف أو يزيدون ، والذين حفظت عنهم الفتوى لا يزيدون علي مئة نفس ونيف وثلاثين نفسًا ما بين ذكر وأنثى ، أما المكثرون منهم فلا يزيدون على سبعة وهم : علي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الله بن عبَّاس ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ﷺ جميعًا ؛ ولهذا فإنِّي أتحرج من الإفتاء في بعض المسائل الصَّعبة الَّتي تعدُّ من المعارك العلميَّة التي لا يخوض فيها إلاَّ الأبطال ، ولا يحوم حولها إلاَّ الفحول من الرجال .

وأرشد السَّائل إلى تقديم سؤاله إلى من هو أعلم منِّي بها أو يكون جوابي عليه بقولي : الله أعلم ، أو لا أدري أو أذكر ما احتج به كل قائل فيها ، وأتوقَّف عن التَّرجيح لعلمي بأنِّي في تلكم المسألة لستُ أهلاً للتَّرجيح ، وأوصي غيري من طلبة العلم ، بل ومن العلماء ، بأن يقتفوا أثر السَّلف الصَّالح في جميع ما رويته عنهم في كلامي الَّذي ذكرته آنفًا .

وبخصوص ما صدر مني من الفتاوى أحب أن أُحيطكم وأحيط القرَّاء علمًا أنَّها في أيدي السَّائلين وليست مجموعة عندي ، كما أنَّ الفتاوى الَّتي أُذيعت في «برنامج فتاوى » من إذاعة الجمهوريَّة اليمنيَّة بصنعاء لا يوجد لها صور عندي ، وهي كثيرة جداً لطول المدَّة التّي كانت الإذاعة تُرسل بالأسئلة إليَّ لأتولَّى جوابها بعد الظهر ، وتُذاع وتُعاد إذاعتها صباحًا ، وهي حلقتان في كل أسبوع تقريبًا منذ حوالي أربعة وعشرين عامًا من يوم فتح هذا البرنامج إلى يومنا هذا ، وذلك من (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) إلى هذا العام بل إلى هذا الأسبوع أو اليوم ، ولا أدري هل هي محفوظة في ملفات الإذاعة أو قد ضلَّت أو ضلَّ أكثرها اللهم خلا النزر اليسير منها ، فله عندي صور فوتوغرافيَّة ، وهي قليلة جداً النسبة إلى ما ليست عندي ، كنسبة الخمسة من المئة ، ويُمكن جمعها في ملازم وطبعها بالآلة الكاتبة وتصحيحها ثم طبعها في الدَّاخل أو أو في الخارج ، وربَّما أتولَّى ذلك بنفسي ، وربَّما أُسلمها إلى إدارة « المعهد العالي للقضاء » ليتولَّى المعهد نقلها بواسطة الآلة الكاتبة ثم طبعها كما تولَّى طبع المُحاضرات التي ألقيتها في قسم الدّراسات العليا لهذا المعهد ، ثم أخرجها في مجلد صغير بعنوان « نظام القضاء في الإسلام » ، كما أنَّ من الممكن أن تتولَّى وزارة الأوقاف والإرشاد هذا العمل إن كان لدى بعض مُوظَّفيها وقت لهذا العمل ، وهناك أيضاً مالٌ يُمكن صرفه في إخراج هذه الفتاوى في مجلد صغير إن شاء الله .

[س٣٠] كثيراً ما نسمع وجود خلاف بين بعض علماء الحديث وبعض علماء الفقه ، فما قولكم في هذا ؟ وكيف يُمكن التَّغلب عليه ؟ .

[جـ] هذا لا يُمكن إلاَّ عند الجهلة والمُتعصِّبين ، أمَّا العالم فلا يهمه ولا يعيبه هذا ، فوظيفة المحدِّث مستقلة بنفسها ، والفقيه كذلك ، المحدّث يبحث في السَّند والصحَّة فقط ، والفقيه يستنبطُ الأحكام الشَّرعيَّة من الأحاديث النَّبويَّة الصَّحيحة ، لكن المتعصِّبين والجهلة

يسيئون فهم ذلك ، وإلاَّ فالإمام أحمد بن حنبل وهو من المحدِّثين كان من طلاب الشَّافعيِّ وهو من الفقهاء وكان الشَّافعي يقول لابن حنبل : إذا تثبَّت من الحديث أنَّه صحيح ائتني به استنبط منه الأحكام الشَّرعيَّة ، فالشَّافعي كان فقيهًا يستنبط الأحكام الشَّرعيَّة فقد كانوا متفاهمين متعاونين مثل الإمام أحمد بن حنبل والإمام مالك وغيره ، كل واحد منهم يحترم الآخر لكن جهل المتأخرين وتعصبهم أوجد بينهم سوء التَّفاهم والخلاف .

ويُمكن الرجوع في هذا الباب إلي كتاب « أدب الطلب ومنتهى الأرب » للشوكاني ، وهو كما نسميه اليوم مذكرات ، وهو مطبوع أكثر من مرَّة ، وتكلَّم فيه بأنه يجب على الإنسان أن ينصف من نفسه ، فلا يعتقد ثم يبحث ، ولكن يبحث أولاً ثم يعتقد ، ويتحلَّى بالإنصاف وبالاستقلال وسيوفقه الله ويصبح من أكبر العلماء ، ثم أتى بقصَّته من أوَّل طلبه للعلم وقصَّته مع شيوخه وغيرهم ، وهذا ما أنصح وأوصي به كل طالب علم أن يشتري كتاب « أدب الطَّلب ومنتهى الأرب » لكي يعرف يقرأ العلم ، وتتحرر أفكاره ، ولا يتعصَّب على الغير .

[س٣١] يُقال إنَّ دور العلماء اقتصر على الفتاوى في الأحكام الشَّخصيَّة والاجتماعيَّة ، بل أصبح العلماء لا يُفتون إلاَّ عند الطَّلب !! ، هل هذه حقيقة ؟ أم أنَّ هناك تعتيمًا إعلاميًا حول فتاوى العلماء التي تمس القضايا العامة والمهمَّة في حياة الأمَّة ؟ .

[جـ] غالب ما يسأل عنه العلماء في الإذاعة والتلفزيون أو المسجد يكون في مسائل الأحوال الشَّخصيَّة وقضايا الأسرة ولا سيَّما الطَّلاق والرضاع والمواريث وعقود النكاح أو في مسائل العبادات كالصَّلاة والصِّيام وبالنسبة لي ما يسألونني إلاَّ في الصَّلاة والزَّكاة وأيَّام الحج يسألونني عن أحكام الحج ، وفي رمضان عن أحكام الصِّيام ومسائل الزَّكاة ويسألون عن الطَّلاق ، وقليل عن الرضاع والمواريث ، ولا يسألونني عن القضايا العامة إلاَّ نادرًا هذا بالنسبة لي .

[س٣٢] كثير من النَّاس يتَّجهون للتجارة مع أن أغلبهم لا يفقهون الأحكام الشَّرعيَّة المتعلِّقة بذلك ، فبماذا تنصحون هؤلاء ؟ .

[**جـ**] كان تجَّار صنعاء قبل (٥٠-٦٠) سنة يمتازون بأنهم يُرسلون أولادهم لطلب العلم ، وخاصة لدراسة الفقه وعلم الربويَّات خشية الوقوع في الحرام وقد عرفت أبناء لبعض هؤلاء التجَّار يحفظون القرآن الكريم ويعرفون أحكام البيع والشراء ، فلمَّا أهمل كثير من التجَّار تعلَّم أحكام البيع والشراء واجهتهم المشاكل ووقعوا في الشبهات وربَّما في الحرام ، ثم يذهبون فيسألون الفقهاء ، ولو كان الأمر على سؤال الفقهاء وأخذ الجواب فحسب لهان الأمر ، ولكن بعضهم يسأل ولا يقتنع فيسأل أكثر من فقيه ويرى أي الآراء يُوافق هواه فيأخذ به ، ولقد كتبت مقالة في مجلَّة الإرشاد[1] وذكرت فيها أنَّ على العامي أن يسأل من الفقهاء من يقتنع به هو ثم يقبل الإجابة سواء بالتَّرك أو الجواز أو التَّحريم أو الكراهة ، وألاَّ يعمل مناقصة بين آراء الفقهاء ؛ لأنَّ هذا لا يجوز ؛ لأنَّه تتبع للرخص .

[س٣٣] يُلاحظ في اليمن - كغيرها من البلاد الإسلاميَّة - عزوف الشَّباب عن طلب الشَّرعي ، فما الأسباب وكيف علاجها ؟ .

[**جـ**] من أهم الأسباب أنَّ الطَّالب لا يجد الوظيفة أو العمل إلاَّ إذا كان يحمل شهادة من كليَّة التجارة أو الاقتصاد مثلاً ، لكن لو أنشأت الحكومة كليَّات شرعيَّة مثل كلية لأصول الدِّين ، وكلية للعلوم الشَّرعيَّة ، وكلية للسنَّة ، ودعموا هذه الشَّهادات بوظائف حكوميَّة لتغيَّر الحال .

---

(١) تقدم ما ورد في مجلَّة « الإرشاد » فانظره .

[س٣٤] كثر الحديث عن المخطوطات المتوقرة في اليمن فما مدى أهميَّة هذه المخطوطات؟ وهل تضيف شيئًا إلى السَّاحة العلميَّة؟ بحيث يُقابل ما يُنفق فيها من جهد ووقت ومال؟ وما أشهر هذه المخطوطات ومن أشهر مؤلفيها؟ .

[جـ] في الحقيقة أنَّ مخطوطات اليمن قد انقرضت ، فلقد نقل أكثرها أيَّام الأتراك وأيام صديق حسن ، ثم أيَّام الحرب والخوف والجوع ، ولم يبقَ منها إلاَّ القليل الَّذي يجب أن تحافظ عليه دور الكتب ، وأن تشتري بأي ثمن أي مخطوطات من الأسر التي تقتني الكتب المخطوطة لحفظها والاعتناء بها .

[س٣٥] يُقال إنَّ تحرير الأوطان ، ومن باب أولى المقدَّسات لا يكون إلاَّ بمداد العلماء ودماء الشّهداء .. فلماذا لا نرى ذلك الحضور البارز للعلماء في حيثيَّات القضيَّة الفلسطينيَّة .. بمعنى هل تحرير الأقصى وفلسطين ليستا مدرجتين ضمن أولويَّات العلماء ؟ ولماذا ؟ .

[جـ] تحرير الأوطان الإسلاميَّة من المغتصبين لها ومن المستعمرين واجبٌ شرعًا وديانة على جميع المسلمين ، كل واحد بحسب قدرته ؛ فالعالم بكلمته وتوجيهاته ، والغني بماله ، والشباب الأقوياء بالجهاد في سبيل الله تعالى ، ولاسيَّما والأعداء هم أحفاد القردة والخنازير شذاذ الآفاق والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه .

[س٣٦] ما هي نظرتكم لانتفاضة الشعب الفلسطيني الحالية وما تقييمكم للآثار المترتبة عليها فلسطينيًا وعربيًا وإسلاميًا؟ .

[جـ] أرى أنها محتاجة إلى عون من جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ماديًا ومعنويًا ، فإذا هبَّ المسلمون إلى إعانة الفلسطينيين ، فسيكون النَّصر القريب إن شاء الله وحينئذ يفرح المسلمون بنصر الله .

[س٣٧] هذا يسوقنا إلى سؤال تأصيلي نتمنَّى من خلاله أن تُوضِّحوا للإخوة القُرَّاء مكانة فلسطين وموقعها في أولويَّات العمل لدى كل مسلم ؟ .

[جـ] قضية فلسطين من أهم المسائل الَّتي يجب على المسلمين الاهتمام بها بحسب الإمكان وبقدر المستطاع ، فلا يتناسونها ولا ينسونها .

[س٣٨] برأيكم ما الوسائل الكفيلة بضمان إبقاء الحضور الدَّائم والمستمر للقضيَّة الفلسطينيَّة في الشارع العربي والإسلامي ، ونخص بذلك المؤسسات التي تقوم بالتَّعبئة العامة ، كوسائل الإعلام والمساجد -الخطباء- والمدارس والمعاهد والجامعات ؟ .

[جـ] هذه كلها من الوسائل هل هي ؟ فأولى بالخطباء والوعَّاظ المرشدين والشعراء والكتَّاب والأدباء والأساتذة والمدرسين جميعًا بأن لا ينسوا إخوانهم في فلسطين ، وذلك بالجهاد بالكلمة ، وأوصي الأغنياء أن لا ينسوا إخوانهم في فلسطين وذلك ببذل المال .

[س ٣٩] مع وصول السَّفاح شارون إلى سدة الحكم في الكيان الصهيوني ، ما رؤيتكم المستقبلية لمسار الصراع ؟ وما الدور المطلوب لمواجهة المرحلة القادمة من الأمة بشكل عام والشعب اليمني بشكل خاص ؟ .

[جـ] مع الإخلاص والاتحاد والتَّعاون من الفلسطينيين أولاً ثم من العرب والمسلمين لا خوف من هذا الطَّاغية ، فكم سبقه من طغاة وكانت عاقبتهم الهلاك وليس شارون بأعظم من غيره من الطُّغاة .

[س٤٠] من خلال نشرتنا هل لكم أن توجّهوا كلمة من هذا المنبر لأهلنا داخل فلسطين وللمجاهدين والمرابطين هناك ؟ .

[جـ] أوجّه إليهم ندائي بأن يستمروا على ما هم عليه حتّى يحصل النّصر أو يُصبحوا من الشهداء الّذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا من أيّام السّلف الصّالح إلى اليوم .

[س٤١] شهدت السّنوات الأخيرة تمييعاً لعقيدة الولاء والبراء مع اليهود والنّصارى على المستوى السياسي والاقتصادي والثقافي ، حيث قام عدد من حكومات الدول الإسلاميّة والعربيّة بتطبيع العلاقات مع إسرائيل ، فما هو قول العلماء في ذلك ؟ .

[جـ] لا أتكلم هنا باسم العلماء ، فكل عالم يُعبّر عن نفسه ، ولا أنطق بدلاً عنه ، أمّا بالنسبة لي فأنا من الذين يُعارضون بشدّة التّطبيع مع اليهود ، واليهود الّذين يقولون إنهم يمنيون هم في الحقيقة ليسوا كذلك ؛ فلقد انسلخوا انسلاخًا كاملاً وأصبحوا (إسرائيليين) .

[س٤٢] لعلّ من الثمار المباركة لانتفاضة « الأقصى » الإجهاز التّام على عمليّة التّسوية ، وتحجيم التّطبيع مع الكيان الصهيوني ، ما الضّمانات التي تُشيرون إليها كي لا تتكرر العودة للتسوية والتّطبيع وما موقفكم من حملة مقاطعة الدّول الدّاعمة للكيان اليهودي ؟ .

[جـ] يجب محاربة التّطبيع بكل ما في الكلمة من معنى وتدعيم كل من يُعارض التّطبيع .

[س٤٣] العلاقة بين اليمن وفلسطين تكاد أن تكون متميّزة عن أي علاقة بين بلدين آخرين أو شعبين آخرين تاريخيًا وتأصيلاً ومصيرًا ، فكيف تُقيمون التَّفاعل في قطاعات الشَّعب اليمني مع القضيَّة الفلسطينية وما السَّبيل إلى ترسيخه وتعميمه واستثماره بما يخدم تلك القضيَّة ؟ .

[جـ] السَّبيل هو العمل بفتوى الجهاد واجب ، وخصوصًا أنها لم تعد وطنيَّة ولا قوميَّة وإنَّما هي دينيَّة ، إنَّها بين مسلمين وكفَّار من أخبث أنواع الكفار ، فهي حرب بين مؤمن وكافر ، وبين مالك للأرض وسارق ، ومغتصب للأرض ، وعلى القادرين على الجهاد العمل بالفتوى .

[س٤٤] برز الشَّيخ (.....) من خلال ظهوره على وسائل الإعلام المختلفة كنصير كبير للانتفاضة ولجهاد شعبنا في فلسطين .. ترى ما الذي يجعل بقيَّة العلماء والدعاة يحجمون عن استغلال وسائل الإعلام في هذا العصر الَّذي يتم فيه توجيه الرَّأي العام العالمي عبر تلك الوسائل ؟ .

[جـ] أنا شخصيّاً ممن يُؤيِّد الانتفاضة وينشر الوعي بين القادرين على الجهاد على أنَّ الجهاد واجب حتَّى ينتصر الحق على الباطل وأصحاب الأرض على من سرقها وغصبها والدين على الكفر والهدى على الظلمات ، لعلَّ غيري من العلماء شعورهم مثل شعوري .